﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَتۡرَفۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يَأۡكُلُ مِمَّا تَأۡكُلُونَ مِنۡهُ وَيَشۡرَبُ مِمَّا تَشۡرَبُونَ ٣٣﴾ [المؤمنون: 33]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الـرّبـط بـين الـدّعـوة إلى الـلـه وتـقـواه، وبـين مـقـالاتِ الـكـافـريـن المُكذّبين في كلّ حين

لمّا ذَكَر في الآية السّابقة القرنَ اللّاحق لجيْل نوح ﷺ، وذَكَر إرسالَ الرّسولِ ومقالَتَه لهم بالعبادة ونفي الشّرك، وكان هذا حوارًا لا بُدَّ له من تمام؛ استكمل هنا هذا الحوارَ بذِكْر مقالةِ القوم لرسولهم، ولمّا كان في كلّ قوم وكلاءُ عنهم من وجهائهم، كان القولُ منسوبًا إلى الملأ منهم، والسّياق هنا ورد في معرض حكاية ما بَدَر منهم من أقاويل، هي للباطل أقربُ منها إلى الحقّ، وذلك إثرَ حكايةِ القولِ الحَقّ، من إرسال رسولٍ يأمر بعبادة الله، وتمحيضِ العبادةِ له دونَ سواه، مع خشيتِهِ وتَقْواه.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡمَلَأُ﴾: (ملأ) أصلٌ يدلّ عَلَى المُساواةِ والكَمالِ في الشَّيْءِ[1]، وأصلُ المَلَأ: جماعة يجتمعون على رأي، فيَملؤون العيونَ رواءً ومنظرًا، والنّفوسَ بَهاءً وجلالًا[2]، والمَلأُ أيضًا: أشْرافُ القَوْم ووجوهُهم ورؤَساؤهم ومُقَدَّموهم، الَّذينَ يُرْجَع إلَى قَوْلِهِمْ، والجَمْعُ: أمْلاء[3]، سُمّوا بذَلِكَ؛ لأنّهم مِلاءٌ بما يُحتاجُ إلَيْهِ، والمراد بهم في الآية: الأشرافُ؛ لأنَّهم عنهم يَصْدُر المَلَأ، وهو جمع القوم[4]، واحتجّ أبو عُبيدة على أنّ الملأ همُ الرّؤساء والأشراف، بقوله ﷻ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ﴾ [البقرة: 246]، قال كَعْبُ بنُ مالك[5]:

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ملأ).
(2) الرّاغب، المفردات: (ملأ).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (ملأ).
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 141.
(5) ديوان كعب بن مالك، ص: 219، وكذلك: أبو بكر الأنباريّ، الزّاهر في معاني كلمات النّاس: 2/ 161.

فدونَكَ واعْلَمْ أنَّ نَقْضَ عُهودِنا***أباهُ المَلا مِنّا الَّذينَ تَبايَعوا

2) ﴿وَأَتْرَفْنَٰهُمْ﴾: (ترف) أصْلٌ، والتُّرْفَةُ: التَّوسُّع في النِّعمة[1]، يُقالُ: أُتْرِفَ فُلانٌ فهو مُتْرَف[2]، فالتَّرَفُ: التَّنَعُّمُ، والتَّتْريفُ: حُسْنُ الغِذاء، وصبيٌّ مُتْرَفٌ، إذا كانَ مُنَعَّمَ البدنِ مُدَلَّلًا، والمُتْرَفُ: الموسَّعُ عليه عَيشُه، القليلُ فيه هَمُّه، وأتْرَفَه اللّهُ، أي: أنعَمَ ووسَّعَ عليه[3]، وأتْرَفَتْه النّعمةُ، أي: أطْغَتْه[4]، "قال ابن عرفة: المُتْرَف المَتروكُ يصنع ما يشاء، لا يُمنع منه، وقيل للمُتَنعِّم: مُتْرَف، لأنّه مُطْلَق له لا يُمْنَع من تَنَعُّم. ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ [الإسراء: 16]، قال قتادة: جبابرتَها"[5]، والمقصودُ بالإترافِ في الآية: جَعْلُهُمْ أصْحابَ تَرَفٍ[6]، أي: نعَّمناهُم وبَسَطنا لهمُ الآمالَ والأرزاقَ[7].

3) ﴿بَشَرٌ﴾: (بشر) أصْلٌ يدلُّ على ظُهورِ الشَّيْءِ مَعَ حُسْنٍ وجَمالٍ، فالبَشَرَةُ ظاهِرُ جِلْدِ الإنسانِ، وسُمّيَ البَشَرُ بَشَرًا لِظُهورِهِمْ[8]، قال الرّاغِبُ: عَبَّرَ عَنِ الإنسانِ بالبَشَرِ، اعْتِبارًا بِظُهورِ بَشَرَتِهُ، وهيَ جِلْدُهُ مِنَ الشَّعْرِ، بِخِلافِ الحَيَواناتِ الَّتي عَلَيها الصّوفُ والشَّعْرُ والوَبَرُ، أيْ: والرّيشُ، وخُصَّ في القرآن كلُّ موضعٍ اعتُبِرَ منَ الإنسان جثّتُه وظاهرُه بلفظ البَشَر، نحو: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا﴾ [الفرقان: 54][9]، والبَشَرُ أيضًا: اسْمٌ يَقع على النّاس، أسودِهم وأحمرِهم، يُقال: هَذا بشَرٌ للرَّجُلِ، وهما بَشَران للرَّجُلين، وفي التَّنْزيل: ﴿فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ [المؤمنون: 47]، ولم يَقولوا: ثَلاثَةَ بشَر[10]، وعليه فالمُرادُ بالبَشَرِ في الآيةِ: اسْمُ جِنْسٍ لِلْإنْسانِ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

(وقال الرُّؤساءُ والأشرافُ والسّادةُ مِن قَومِ هذا الرّسولِ، الَّذين كَفَروا باللّهِ، وكذَّبوا

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ترف).
(2) الرّاغب، المفردات: (ترف).
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ترف).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (ترف).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ترف).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 18/ 52.
(7) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 142.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بشر).
(9) الرّاغب، المفردات: (بشر).
(10) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (بشر).

بالبَعثِ والحِسابِ، ونعَّمْناهم ووَسَّعْنا عليهمُ الرِّزقَ في الحَياةِ الدُّنيا حتَّى بَطِروا وطَغَوا، ما هذا الذي يدَّعي الرّسالةَ فيكم إلّا بشرٌ مماثلٌ لكم، فهو يأكل ممّا تأكلون منه، ويشرب ممّا تشربون، فليست له ميزةٌ فيكم، حتَّى يدَّعي أنَّه رسولُ اللّهِ إليكم!)[1].

التَّرفُ من غير إيمان يجعلُ النَّفسَ تُنكِر الرّسولَ، وتنظرُ إلى خصائصه البشريّة

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة موقع جملة ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ﴾ ممّا قبلها:

جملة ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦ﴾ معطوفةٌ على حكاية الإرسال المُتضمِّن معنى القول في جملة ﴿فَأَرۡسَلۡنَا فِيهِمۡ رَسُولًا مِّنۡهُمۡ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، وهو من باب عطف القِصّة على القِصّة، وفائدة الوصل بالواو: الجمع بين مقولة الحقّ، ومقولة الباطل؛ لتتجلّى المقابلة المعنويّة بين المقولتين، وامتنع الوصل بالفاء - هنا - ولم يأت على غرار قوله في قصّة نوحٍ: ﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ﴾ [المؤمنون: 24] لسببين:

الوصل بالواو جمعٌ بين مقولة الحقّ، ومقولة الباطل؛ لتتجلّى المقابلة المعنويّة بينهما

الأوّل: لِكون مقولتِهم - هنا - غيرِ متّصلة بكلامِ رسولهم، فهي ليست على إرادة التّعقيب بلا مُهْلةٍ، فعُطِف بالواو لِمُراعاةِ أنّ قولهم هذا، كان متأخِّرًا عن وقت مقالةِ رسولِهم الّتي هي فاتحةُ دعوته؛ بأنْ يكونوا أجابوا كلامَه بالرّدّ والزّجر، فلمّا استمرّ على دعوتهم وكرّرها فيهم؛ وجّهوا مقالتَهم المحكيّةَ هنا إلى قومهم.

الثّاني: أنّ كلام نوحٍ ﷺ، قد حُكيَ بصيغة القول: ﴿فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ [المؤمنون: 23]، فكان ذلك حوارًا صريحًا مقتضيًا للمُطاوعةِ الفوريّة، فناسَبَ تعقيبَها بالفاء، وجاء كلام الرّسولِ - هنا - مَحكيًّا بـ ﴿أَنِ﴾ التّفسيريّة؛ لِما تضمّنَه معنى الإرسالِ من معنى القول: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا فِيهِمۡ رَسُولًا مِّنۡهُمۡ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، فكان حِوارًا وقولًا ضِمْنيًّا، يقتضي الانفعالَ معه على نفْس رُتْبَتِه بتَوانٍ وعدم تعجّلٍ؛ فناسب أنْ يُعطف

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 39، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 121، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 551.

بالواو دون الفاء، لكون الفاء دالّةً على الاندماج السّريع في الحوار، والحوارُ هنا غيرُ صريحٍ، فلم يكن عطفُهُ بالفاء هو الأنسب.

ويصحّ أن تكون الواو استئنافيّةً في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ﴾، على إرادة القطع بين مقولة الرّسول، ومقولتهم؛ لأنّ مقولتَهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ ليستْ موجّهةً للرّسول، بل لأقوامهم، فانفصلت بذلك عن قول الرّسول؛ لكونها ليست ردًّا على قولِه، ولا حوارًا معه، فحسُن أنْ تكون مستأنفةً للانتقال إلى تقرير موقفهم، وخلاصةِ فِعالِهم بعد الدّعوة والبيان.

توجيه المتشابه اللفظي:

قد أتتِ الجملةُ موصولةً بالعاطف، ولم تأتِ مفصولةً، على غِرار نظيراتها في سورة الأعراف وسورة هود، في قوله: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ [الأعراف: 60، 66]، وقولِه: ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ﴾ [هود: 53]؛ لأنّ هذه الآيات جاريةٌ على الاستئناف البيانيّ، على تقدير سؤال، أي: فما كان قولُهم له؟ قال: قالوا: كذا وكذا، والاستئنافُ البيانيّ من مواضع الفصل؛ لشِبه كمالِ الاتّصال، وأيضًا: الفصل في هذه النّظائر؛ لأصل جريانها على أسلوب المُحاورات الّتي تقتضي جعلَ الكلامِ فصولًا مقسومةً بقطع كلام المُحاوَر عنِ المُحاوِر له، وأمّا - هنا - فالوصلُ بالعاطف لكون الحوار - هنا - ليس موجَّها منَ الملأ إلى الرّسول، بل هو حوارٌ موجَّهٌ منَ الملأ إلى سائر القوم أو الشّعب، فهو حوارٌ مضمومٌ إلى حوارٍ سابقٍ عليه، فاقتضى عطفَه، وليس حوارًا واحدًا يقتضي الفصلَ بين تقاسيمه[1].

سِرّ استعمال لفظ ﴿ٱلْمَلَأُ﴾ في السّياق:

استُعمِل لفظُ ﴿ٱلْمَلَأُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦ﴾؛ ليَدُلَّ به على خصوص الفِئة، فإنّ الملأ هم رؤوسُ القومِ وأشرافُهُمْ،

الملأ لهم من النّفوذ والحيثيّة ما يُغري النّاسَ باتّباعهم في الحَقّ والباطل

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 186، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 87، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 559، وابن التّمجيد، حاشية ابن التّمجيد بهامش القونويّ: 13/ 168، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 51، وصافي، الجدول: 18/ 176.

الّذين تَمْلَأ رؤيتُهم الصّدور[1]، وخصَّهم دونَ غيرهم؛ لأنّهم صانعو القرارَ في كلّ بلد، وبيدهم تحريك الأحداث، ولهم منَ النّفوذ والحيثيّة ما يُغْري عمومَ النّاس باتّباعهم، والاغترارِ بتحريضهم ومسلكهم، وذلك مألوف في كلّ الشّعوب.

دلالة قيد ﴿ٱلْمَلَأُ﴾ بالمتعلّق ﴿مِن قَوْمِهِۦ﴾:

المَـذمـومُ في قومه، هو عندَ غيرِهم أشدُّ ذمًّا

﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن قَوْمِهِۦ﴾ بيانيّةٌ؛ لتعيين المَلأ وتعريفهم؛ لأنّ القبائل قد تفرّقتْ بتفرّق الألسن واللهجات، فاحتاجَ لتعيينهم، لأنّ لكلّ قبيلةٍ مَلَأً، وفائدةُ تعيينِ أنّهم من قومه: التّحسيرُ من حالهم، والنّعي عليهم؛ فإنّ التآمُر من القوم أوجع؛ لأنّهم أعرفُ النّاس بالرّسول، فكان الأولَى أن يحملهم عِرفانُهم به على القبول له والمدح، أو الصّمتِ عنه، وعدمِ القدح؛ لأنّ القَدْحَ إذا جاء منَ العارف القريب، أغرى البعيدَ الغريبَ على عدم النّظر وعدمِ التّصديق، فمن كان مجروحًا عند قومه، كان عند غيرهم أعْظَمَ جَرْحًا.

دلالةُ تقديمِ الجارّ والمجرور في السّياق:

بيـان أنّ غـاية التّقـديـم دفـعُ الإبهامِ الّذي قد يقع في النّظم

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور على متعلَّقه في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ للاعتناء والاختصاص؛ ولأنّه لو أُخِّر لكان بعد تمام الصّلة، وهي طويلةٌ بالمعطوفات، فيؤدّي إلى الفصل بينَ البيان والمُبيَّن؛ ولأنّه لو أُخِّرَ لأوهمَ أنّ قوله: ﴿مِن قَوْمِهِۦ﴾ متعلّق بـ ﴿ٱلدُّنْيَا﴾، فأُخِّرَ النّعتُ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ لتتّصلَ به الصّفتانِ المعطوفتان من قوله: ﴿وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلْأَخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ﴾، بخلاف قوله: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ﴾ [المؤمنون: 24]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف: 66]، بتأخير الجارِّ والمجرور على الأصل، ولعدم المعطوفات في حيّز الصّلة[2].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 138.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 138، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 5/ 119، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 52.

دلالة التّعريف بالصّلة في السّياق:

الكُفْر يستجلب القوادحَ، ويُفضي إلى أسوأ المَذامّ

وصفُ الملأِ بالكفر، على طريقة التّعريف بالصّلة: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ ذمًّا لهم وتنبيهًا على غُلوِّهم في الكُفْرِ، بإجراء وصف الكفر على ذواتِهم؛ إشعارًا بأنّ كُفْرَهُم هو عِلّةُ ضلالهم فيما قالوه منَ البُطلان والقَدح.

دلالةُ العطف بين فِعْلَي ﴿كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ﴾:

تعديدُ المدائحِ يُفيد المبالغةَ في المَدح، وتعديدُ القوادح يُفيد المبالغةَ في الذَّمّ

العطف بين فِعلي ﴿كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ﴾، في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾؛ للمُغايرة والتّعديد في أوصافهم، نعيًا عليهم بالذّمّ، فإنّ تعديد القوادح كتعديد المدائح[1]؛ يُراد بهِ الإغراقُ في الذّمِّ والاستزادةُ منه؛ لتجلية حقائق الخصم وتعليلِ مؤاخذتِه، بأنّها بعد بيّنةٍ وسَعَة، وفائدة ذلك: التّنبيه على أنّهم ازدادوا كفرًا على كفر، فداروا في مَدارِه، حتّى استتمّوا حَلْقتَه، واستوفَوا أصولَه وأركانَه، فكَفَروا بالخالق، وكذّبوا بلقائه في الآخرة[2].

نُكْتَةُ ذِكْر (التّكذيب) بعد (الكفر)، مع أنّه من جِنسه:

التّكذيبُ بالآخرة منتهى الكُفران، وغاية النُّكران

عُطِفَ التّكذيبُ بالآخرة على الكفر في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾؛ ليَدُلّ على أنّ كلًّا منَ الكفر باللّه، والتّكذيبِ بلقائه وحسابِه، مقترنانِ لا ينفكّان، يُجامِع أحدُهما الآخرَ، وهو من باب عطف الخاصّ على العامّ، ولم يُذْكَر معمولُ الكفرِ للتّعميم، أو لأنّ الكفر باللّه هو الكفرُ الواسع البَواح، فمعناه العموم، فيُساق على طريقة العموم بحَذْفِ المعمول، ثمّ ذَكَرَ أعظمَ أفرادِه، وهو التّكذيب بالآخرة؛ ليَدُلّ على مبدأ الكفر ومنتهاه، فالكفر باللّه يُؤدّي إلى الكفر بلقائه يومَ القيامة، والتّكذيبُ بالآخرة يُيَئِّسُ منَ النّظر والاستماع،

(1) تعديد المدائح: يراد به المبالغة في المدح، إذْ مَن بُولِغ في مدحه، تعدّدت وتنوّعت مدائحُه، للدّلالة على كثرة مآثره.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 133.

فإذا قال: هم كافرون ومكذّبون بالبعث، فكأنّه يقول للمخاطَب: هم راسخون بذلك في كفرهم، محجوبون محرمون، فلا يُرجَى منهم إيمانٌ، ولا يؤمَّل منهم إصغاءٌ، وإعادةُ نظر.

سِرّ توالي الأفعال الماضية في النّظم:

مَـن أظلمت نهاياتُه بالكفر هلكَ، والعِبْرةُ بالخواتيم

توالي الأفعال الماضية، في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ﴾، ﴿كَفَرُواْ﴾، ﴿وَكَذَّبُواْ﴾؛ ليدلّ على أنّ آخر عهدِهم بالرّسول الكفرُ، فآخِرُ ما يصحّ أنْ يُحكَمَ به عليهم منَ الأوصاف: أنّهم متحقّقون بالكفر تَحَقُّقَ الماضي في ثبوته، وعدمِ تغيّره في الانقضاء والتّحقّق والفوات، فلم يَمْحوه بتوبةٍ، أو يستدركوه بإيمان.

دلالةُ إضافة المصدر إلى ظَرْفِه:

لـقـاءُ الآخـرةِ مـصـيرٌ لا مَـفـرَّ مـنـه، ولا مندوحةَ عنه

إضافة المصدرِ إلى ظَرفِه في قوله تعالى: ﴿بِلِقَآءِ ٱلْآخِرَةِ﴾؛ لتعيين نوع اللّقاء المَذكور، بتعيين موقِعه، وهو لقاء الحسابِ الّذي يقع في الآخرة[1]، وهذا اللّقاءُ قَدَرٌ مقدور، "وهو لقاء الحسابِ والعقابِ والثّواب، ولقاءُ ملائكةِ العذاب، أي: أنّه يلقى كلُّ (مَنْ) في الآخرة، كلَّ ما هو شقاءٌ مرهوبٌ"[2]، وذلك اللّقاء هو الظّرفُ المُرتبطُ بهَول العَرْض على مَن بيده الأمرُ كلُّه، وهناك تُبْلَى السّرائرُ، وتُحَدّد المصائرُ، ويكون النّاسُ في هول ورُعبٍ وتوجّس؛ حيثُ ينتهون، إمّا إلى جنّة راضية، أو إلى نارٍ حاميَة.

موقع جملة ﴿وَأَتْرَفْنَٰهُمْ﴾ ممّا قبلها:

الـتّرفُ يُحَرّض على الطّغيان، ويَمنع مِنَ الشُّكران

قوله تعالى: ﴿وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، إمّا معطوفٌ على صلة الموصول، فهو داخل في حيّز الصّلة، كأنّه قيل: (والّذين أترفناهم)، فالواو عاطفة، أو حالٌ منَ الضّمير في: ﴿وَكَذَّبُواْ﴾، كأنّه قيل: (كذّبوا والحالُ أنّا أترفناهم)، أو: (كذّبوا وقد أترفناهم)، وكِلا الوجهين

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5070.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5070.

يُفيد أنّهم قابلوا الإحسانَ بالتّرَف، وإسباغَ النّعمةِ بالإساءةِ، وبالكفر والتّكذيب، وهذا أبلغُ في ذمّهم والنّعي عليهم، واستهجان مسلكهم[1].

دلالةُ التّعبير بمادّة (الترف):

الفاسدُ يرى المالَ والتّرفَ المعيارَ للمكانة والشّرَف

عَبَّر بمادّة التّرف في قوله تعالى: ﴿وَأَتْرَفْنَٰهُمْ﴾؛ لكون التّرف يُغريهم على الأشَر والبَطَر، والاستغناء المُستَلزِم للإعراض عنِ الرُّسل، والمُكابرة في اتّباعهم، وعدمِ التّواضع لقيَم الحقّ الّذي نزل بها الوحيُ؛ توهّمًا منهم أنّ التّرف مِن لازم الشّرف، فجعلوه معيارًا في الاستحقاق والقبول والتّمكين؛ حتّى عبدوا المالَ والجاه، واتّخذوهما آلهةً مِن دون اللّه، فلا وكيلَ عليهم، ولا مُلزِمَ لهم[2].

دلالةُ نسبةِ إترافِهم إلى الله تعالى:

يمتحنُ اللهُ سبحانَه النّاسَ بوفرة النّوال، كما يمتحنُهم بالإقلال

نسبةُ إترافهم إلى ضمير العَظَمة الجليل في قوله تعالى: ﴿وَأَتْرَفْنَٰهُمْ﴾؛ للدّلالة على مصدر الإنعام والتّرف الّذي جرّأهم على الكفر بالمنعِم سبحانه، والاستكبار عن وحيه، وهو تعريضٌ بهم عظيم! كأنّه قيل: أترفناهم فكفروا بنا، بما كان ينبغي أن يكون عونًا لهم على الطّاعة والإيمان، فتوسّلوا به إلى الكفر بالمُنعِم! ففيه إشارةٌ إلى أنّ الكافر باللّه كافرٌ بنعمته؛ بوضعها في غير موضعها، واستغلالِها بغير ما هو لها.

دلالةُ الجمعِ بين وصفَي (التّكذيب) و(التّرف):

التّرَف من غير إيمان، يَجُر إلى التّجبّر والطّغيان

الجمع بينَ التّكذيب بلقاء الآخرة، والتّرف في الدّنيا، هو من عطف السّببِ على المُسبَّب، فالتّرف في الدّنيا أطغاهم وأنساهم، فكان سببًا في تكذيبهم، كما قال تعالى: ﴿وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ﴾ [المزمّل: 11]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق: 6 - 7]، وفيه إشارةٌ إلى أنّ التّرف في الدّنيا من غير إيمانٍ، يَجُرّ

(1) القُونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 13/ 169.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 138.

إلى التّجبُّر والتّكبّر، والإفساد بالعدوان على أهل الفضل وظُلمِهم، والانفلات العريض؛ لأنّ التّكذيب بالآخرة ينفي عنهم توقّعَ المؤاخذةِ بعدَ الموت، والثّروةَ وبسطةَ العيشِ تُغريهم بالكِبر والصَّلَف، إذْ ألِفوا أن يكونوا سادةً لا أتباعًا، يُحتاج إليهم، ويَسْعَى الكلُّ في خِدمتهم، ولا يحتاجون لأحد[1].

بلاغة الكناية في التّركيب المُحكم:

التّماثُل يُغري بعدم الاتّباع والتّسليم

قوله تعالى: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، "كنايةٌ عن تكذيبه في دعوى الرّسالة؛ لتوهّمهم أنّ البشريّة تُنافي أن يكون صاحبُها رسولًا منَ الله، فأتَوا بالمَلزوم وأرادوا لازمَه"[2]، ومفادُ السّياقِ: أنّ هذا الّذي يَدّعي أنّه رسول، ليس إلّا بشرًا عاديًّا، لا ميزةَ له عليكم، فهو يأكل ويشرب مثلما تفعلون، فكيف يدّعي أنّه الأفضل، ويزعم أنّه مرسلٌ منَ الله إليكم؟.

عِلّة التّعبير بلفظ ﴿مِّثْلُكُمْ﴾:

بيانُ ما آلَ إليه فسادُ المعيار والتّصوّر، عند الكافرين المُعاندين

التّعبير بالمثليّة، في قوله: ﴿بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾؛ لإرادة اتّحاد الرّسول مع متبوعيهم في الوصف والحال، وفيه استكبارٌ وعُلوٌّ منهم على مَن يخاطبونهم منَ الأتباع، فضلًا عن تهوينهم لشأن الرّسول، ووجْه ذلك: أنّهم لم يُضيفوا المِثليّةَ إلى ضمير أنفسهم، فلم يقولوا: (بَشَرٌ مِثْلُنا)؛ لتحييد أنفسِهم عن مقام المقارنة مع أحد، كأنّهم خارجُ المقارنةِ؛ عُلوًّا واغترارًا بتَرَفهم ونفوذهم، ويؤيّده: أنّهم قاسوا الرّسولَ بمعيار نوعيّة المُتّبعين له، وهو أنّه قد اتّبعه مَن كانوا مِن أتباعهم، وفي حُكم خُدّامهم، كما في قصّة نوحٍ ﷺ، في سورة هود: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ [هود: 27]، أي: خُدّامنا وأتباعُنا من خارج المَلأِ والأشراف[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 52.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 52.
(3) القُونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 13/ 167.

نُكْتَةُ إيثارِ لفظ ﴿مِّثْلُكُمْ﴾ على (مِثْلُنا):

تهويـنُ أمـرِ المُـرسَـل مـنَ العـنـاد وشِـدّة الجهل

إسناد المِثليّة إلى ضمير الخطاب، بدلًا من ضمير المتكلّم، في قوله: ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ فلم يقولوا: (إلّا بَشَرٌ مِثْلُنا)؛ للمبالغة في تهوين أمرِه ﷺ وتوهينِه[1]، والحالُ أنّ الله وسّعَ لهم نِعَمَ الدّنيا، "فَبَطِروا بسبب ما صاروا فيه من كثرة المال، ورفاهةِ العيش، حتّى وصفوا رسولَهم بمساواتهم في البشريّة، وفي الأكل والشّرب"[2]، والواقع أنّ نظرتهم إلى هذا الأمرِ السّماويّ الجليل كان من وجهة نظر مادّيّة بحتة، وهي نظرة قاصرة محدودة، ولو تعالَوا بنظرتهم إلى آفاقٍ أرحبَ وأسمى، لَعَلِموا أنّ الأسرار والهداية والخوارق، لا تحدُّها مماثلةٌ، ولا تقيّدها مشابهةٌ ظاهريّة؛ لأنّ الأسرار كالأرواح التّي عبّر عنها القرآن الكريم بأنّها من أمر الله، في قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء: 85].

بلاغة الكناية والوصف بالأكل والشّرب معًا:

الاسـتـدلالُ بـالـحـيـثـيّـات السّاذجة، أمارةٌ عـلـى سـطـحـيّـة الـعـقـول ومحدوديّتِها

قوله: ﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾، استدلالٌ منهم على بشريّته المُماثلة لهم، فالجملةُ تقريرٌ لمضمون الجملة قبلها، وهي كنايةٌ عن عدم تفوّقه عليهم في شيءٍ، حتّى يُصطفَى عليهم بالرّسالة، وفي استدلالهم هذا ازدراءٌ لعقولهم، التّي لا تعرف غيرَ التّفضيل الماديّ، ولا تستدلّ إلّا بالمحسوس، وهذا نتيجةُ النّمط الّذي تشرّبوا به، منَ التّرف والانغماس في النِّعم والشّهوات، ولذا استدلّوا بحيثيّة ساذجةٍ، لا تعدو صورةَ الأجسام وكيميائيّتها.

دلالة حذف العائد في قوله: ﴿مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾:

حَـذْفُ عـائـدِ المـوصـول مـنَ الصِّلة مِن بليغ الإيجاز

حُذِفَ العائدُ في قوله: ﴿مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾، ولم يقل: (مِمّا

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 133.
(2) القِنَّوجيّ، فتحُ البيان في مقاصد القرآن: 9/ 117.

تَشْرَبونَهُ)، أو (تَشْرَبُونَ مِنْهُ)؛ اكتفاءً بدلالة ما قبله عليه في قوله: ﴿تَأْكُلُونَ مِنْهُ﴾، وطلبًا للإيجاز، وصيانةً للفاصلة ألّا تنخرمَ، هذا إذا جعلنا (ما) في قوله: ﴿مِمَّا﴾ موصولة، فإن جُعِلتْ مع ما بعدها مصدرًا، لم تحتج إلى عائد، ويكون المصدر واقعًا موقعَ المفعول، أي: من مشروبكم[1].

دلالةُ تكرُّرِ الحرف (من)، وأثرُه في المعنى:

الإحالةُ على الجنس أولى منَ الإحالة على الخصوص

(مِنْ) في قوله: ﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾ ابتدائيّةٌ، أي: مصدرُ أكْلِه ومَبْدؤه من جنس أكْلِكُم، و(مِنْ) الثّانية في قوله: (تَأْكُلونَ مِنْهُ) بيانيّة، أي: مأكولُه من جنس أكلِكم، ولذلك لم يقل: (مِمّا تَأْكُلونَهُ)؛ لأنّه لا يأكل من أكلِهم الخاصّ بهم، بل يأكل من مِثْلِه في النّوع والجنس، من طعامٍ آخَر، فالإحالة على الجنس أولى منَ الإحالة على الخصوص، ويقال مثل ما سبق في معنى (مِنْ) في قوله: ﴿وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التّرف والغِنى:

لم يرِد التّرفُ في القرآن إلّا مذمومًا، وكلُّ مُترفٍ غنيّ، وليس كلّ غنيٍّ مُتْرَفًا

التّرفُ: هو التّوسُّع في النِّعَم، والمُتْرَف: هو المُتَنعِّمُ المُتوسِّعُ في مَلاذّ الدّنيا وشهواتها، والمُتْرَف: هو المتروكُ يصنع ما يشاء في النِّعَم لا يُمنَع ممّا فيه، فهو مُطْلَقٌ في تنعُّمِه، لا يُقيّده شيء، ولم يَرِد التّرفُ في القرآن إلّا مذمومًا[3].

وأمّا الغِنَى: فهو الكفاية بالشّيء عن غيره؛ لعدم حاجته لغير ما عنده، والغِنى: هو عدمُ الحاجات، وهذا لا يكون إلّا لله تعالى؛ لأنّه ذو الغِنى الكامل، وهو قِلّة الحاجات، وهذا حاصلٌ في الخلْق،

(1) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 8/ 332.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 232.
(3) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، ومحمّد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (ترف).

والغِنَى لمّا كانت حقيقتُه في الاكتفاء بالشّيء وعدمِ الحاجة إلى ما سواه، وكان النّاس يتفاوتون فيما بينهم في حدود هذه الكفاية، صحّ لذلك أن يطلق على الهيئة النّفسيّة؛ لتفاوت النّفوس في أغراضها، ومقدارِ ما يكفيها، ولذا كان الغِنَى غِنى النّفْس في أساسه، وكان ممدوحًا تارةً، ومذمومًا تارةً، بحسب حال الإنسان نفسِه[1].

وعليه: فالتّرفُ أعمّ منَ الغِنى، وهو يتعلّق بكثرة النّعم والتّوسّع فيها، وأمّا الغنى: فيتعلّق بالكفاية بما حصل منها، وبعدم الحاجة إلى غير هذا الحاصل، وإن لم يكن كثيرًا أو واسِعًا، ويقال الغِنى للهيئة النّفسيّة؛ لأنّها باعثة على الاكتفاء، وأمّا التّرف فلا يتعلّق إلّا بالكثرة الخارجة منَ النّعم.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (غني).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس والثلاثون،
سورة الحَجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس والثلاثون، سورة الحَجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 35 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-77-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 35 : المجلد الخامس والثلاثون، سورة الحَجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-77-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7984898 بتاريخ 2024/11/14م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»